مسائل ابن جزي الغرناطي وأجوبته في قضايا العقيدة : (الإلهيات – السمعيات)

أسمـاء أشـــرف شوقي عـــلي (*)

مستخلص البحث

يتناول هذا البحث موضوع: مسائل ابن جزي الغرناطي التفسيرية وأجوبته عليها في تفسيره (التسهيل لعلوم التنزيل)، حيث يعد ابن جزي الغرناطي من أبرز المفسرين الذين اعتنوا بإيراد المسائل التفسيرية والأجوبة عنها الإمام ابن جزي الغرناطي (ت٧٤١هـ)، وقد كان ـ رحمه الله ـ مفسرًا موسوعيًا؛ فهو فقيه مالكي, محدث، أصولي, مقرئ, متكلم، أديب, نحوي, فجاءت مسائله في التفسير وأجوبته عنها ثروة كبيرة تتسم بثراء المعاني والألوان التفسيرية، فقد خطّ بقلمه في هذه المسائل والأجوبة عنها دررًا ثمينة، وحقق مسائل عويصة, متقنًا في ذلك الصنعة التفسيرية. ومن هنا آثرت أن تكون هذه المسائل التفسيرية والأجوبة عنها عند الإمام ابن جزي الغرناطي.

ومن تلك المسائل التي عالجها هذا البحث: مسائل ابن جزي الغرناطي وأجوبته في قضايا العقيدة : (الإلهيات ـ السمعيات).

المقـدمــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلوات ربي وتسليماته عليه.

وبعـد،،،

فإن القرآن الكريم هو غذاء الروح والبدن، ودواء الأسقام والعلل، وهو معجزة الإسلام الخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ فكان أولى ما عملت فيه القرائح، وتشاغلت به الأوقات، وتقاصرت دونه الأعمار، فهو حبل الله المتين، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ (١)

(*) هذا البحث مستل من من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: [مسائل ابن جزي الغرناطي التفسيرية وأجوبته عنها من خلال تفسيره (التسهيل لعلوم التنزيل: جمعا ودراسة)]، وتحت إشراف: أ.د. عبدالفتاح عبد الغني العواري - عميد كلية أصول الدين بنين جامعة الأزهر بالقاهرة سابقا ورئيس مركز الإمام الأشعري وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف & أ.م.د. عبد الله محمد يوسف - كلية الآداب – جامعة سوهاج.

(١) سورة فصلت, الآيتان ٤١-٤٢.

ومن هنا كان علم التفسير والاشتغال بتدبر معاني القرآن وبيانه من أشرف العلوم وأرفعها؛ لأن موضوعه كتاب الله تعالى، ويشرف العلم بشرف موضوعه. وقد اهتم علماء المسلمين بعلوم التفسير، ففتح الله لهم أبوابًا من فهم القرآن، ومعرفة معانيه، والوقوف على أسراره، فصارت تفاسيرهم منارًا يهتدي به الناس في بيان ما أنزل الله تعالى من الهدى والبينات، وجوابًا لما أشكل عليهم فهمه وخفي عليهم علمه، فخلَّفوا للإنسانية تراثًا عظيمًا، ينتظم فيه ما اهتدوا إليه من معاني القرآن ووجوه إعجازه.

هذا، وقد تعددت مشارب المفسرين وتنوعت مناهجهم، في تناولهم لتفسير كتاب الله تعالى، فاقتصرت عناية بعضهم على التفسير بالمأثور، واهتم البعض بقراءاته وقرائه، واتجه بعضهم إلى العناية بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني والمناسبات وغيرها من علوم القرآن، وأكثرهم جمع بين المأثور والرأي؛ من خلال توظيف علوم الشريعة واللغة في فهم واستنباط معاني القرآن، ومع ذلك فما زالت في القرآن الكريم علوم مكنونة ودرر مصونة، تحتاج إلى جهود مكثفة للكشف عنها؛ فإن معاني القرآن لا تنفد، وعجائبه لا تنقضي.

ومن أبرز المفسرين الذين اعتنوا بإيراد المسائل التفسيرية والأجوبة عنها الإمام ابن جزي الغرناطي (ت٧٤١هـ)، وقد كان ـ رحمه الله ـ مفسرًا موسوعيًا؛ فهو فقيه مالكي, محدث، أصولي, مقرئ, متكلم، أديب, نحوي, فجاءت مسائله في التفسير وأجوبته عنها ثروة كبيرة تتسم بثراء المعاني والألوان التفسيرية، فقد خطَّ بقلمه في هذه المسائل والأجوبة عنها درررًا ثمينة، وحقق مسائل عويصة, متقنًا في ذلك الصنعة التفسيرية. ومن هنا آثرت أن تكون هذه المسائل التفسيرية والأجوبة عنها عند الإمام ابن جزي الغرناطي مجال أطروحتي للدكتوراه، فجاءت هذه الخطة بعنوان (مسائل ابن جزي الغرناطي التفسيرية وأجوبته عنها من خلال تفسيره التسهيل لعلوم التنزيل: جمعا ودراسة). أسأل الله تعالى أن يوفقني لخدمة علوم كتابه العزيز، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم.

أسباب اختيار الموضوع:

من أهم الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع ما يأتي:

أولًا : أن تفسير ابن جزي الغرناطي من أهم التفاسير التي تناولت المسائل التفسيرية والأجوبة عنها.

ثانيًا : كثرة المسائل التفسيرية والأجوبة عنها في تفسير ابن جزي الموسوم بـ (التسهيل لعلوم التنزيل) والتي تصل إلي مائة وخمسين مسألة تقريبًا.

ثالثًا : امتلاك ابن جزي القدرة الفائقة في تسخير العلوم الشرعية واللغوية لخدمة أغراض التفسير, كعلوم الحديث، وعلم الفقه، وعلم الأصول، وعلم النحو، وعلم القراءات، وعلم الناسخ والمنسوخ، وأصول التفسير، وغريب القرآن، والمتشابه اللفظي، وغيرها.

رابعًا : أن دراسة مثل هذا التفسير الثري المتنوع تجعل الباحث يرجع الي كثير من المصادر، إما لتحقيق المسائل العلمية أو للمقارنة بين مذاهب العلماء فيها، مما

يعمل على إثراء الدرس التفسيري، وتنمية ملكات النقد والاستدلال والترجيح لدى الباحثين والدارسين.

الدراسات السابقة:

لم يتطرق أحد من الباحثين إلي مسائل ابن جزي وأجوبته من خلال تفسيره بدراسة مستقلة، ولكن هناك دراسات اخري فيه, و هناك دراسات في المسائل والأجوبة لعلماء آخرين، ومما وقفت عليه في ذلك:

١- منهج ابن جزي في عرض القراءات في كتابه "التسهيل لعلوم التنزيل", مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية تخصص التفسير بين القديم والحديث, إعداد الطالب محمد مرداس,١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٢- ملامح التفسير اللغوي عند ابن جزي الكلبي, للدكتور رمضان فوزي بديني.

٣- علوم القرآن عند ابن جزي الكلبي وأثرها في تفسيره" التسهيل لعلوم التنزيل"، تأليف دكتور طارق بن أحمد بن علي الفارس, ط,١,١٤٣٨ هـ.

٤- شرح مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي, دكتور مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار, ط١, ١٤٣١هـ.

٥- توجيه القراءات عند الإمام ابن جزي, إعداد دكتور أحمد بن علي بن حيان الحريصي, أستاذ مساعد بقسم القراءات جامعة أم القري, العدد(٢٩) ١٤٣٨هـ.

٦- النظرة الموضوعية عند ابن جزي الكلبي من خلال مقدمته, وتطبيقاته في التفسير, مقدمه سلمي داود إبراهيم بن داود, أستاذ مساعد بكلية الدعوة وأصول الدين, جامعة أم القري.

٧- أصول التفسير وتطبيقاتها عند ابن جزي الكلبي (ت:٧٤١هـ) من خلال كتابه "التسهيل لعلوم التنزيل", الباحث: محمد غزلاوي, الماستر في العلوم الإسلامية ومقاصدها المنهجية والمعرفية, باحث في سلك الدكتوراه، الفكر الإسلامي: التحديات المعرفية والخصائص المنهجية، كلية الآداب, والعلوم الإنسانية المحمدية، المغرب.

٨- ابن جزي ومنهجه في التفسير, تأليف محمد علي الزبيري, ط١, ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٩- أسئلة الإمام الخطيب الشربيني في تفسيره وأجوبتها-عرض ودراسة وتعليق، رسالة ماجستير من إعداد الباحث عبدالله مسلم حسين مسلم، نوقشت في كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، بالزقازيق، عام ٢٠١٧م.

١٠- أسئلة الإمام الخازن في تفسيره لباب التأويل وأجوبتها من أول سورة الكهف الي آخر سورة الناس، رسالة دكتوراه من إعداد الباحثة سهير محمود عبدالرحيم، نوقشت بكلية البنات الإسلامية بجامعة الأزهر بأسيوط، عام ٢٠١٩م.

١١- أسئلة الإمام ابن عادل الحنبلي وأجوبته في كتابه اللباب في علوم الكتاب (المسائل العقدية أنموذجًا)، بحث من إعداد الباحثة حنان محمد حسن، منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة الوادي الجديد، العدد الثالث عشر، سنة ٢٠٢١م.

منهج الدراسة :

تعتمد هذه الدراسة المنهجين الاستقرائي والتحليلي؛ من خلال استقراء مسائل ابن جزي الغرناطي في التفسير وأجوبته عنها، ثم تحليلها بغرض الوقوف على أبرز معالم منهجه في عرض المسائل التفسيرية والإجابة عنها.

إجراءات البحث :

أولًا: استقراء مسائل ابن جزي الغرناطي التفسيرية في جميع آيات القرآن ثم حصرها.
ثانيًا: ترتيب هذه المسائل والأجوبة في مباحثها وفصولها، مشفوعة بالدراسة اللازمة، وفي كل مسألة أضع عناوين للمسائل في جميع الفصول والمباحث، ثم الدراسة والتعليق، وفيها أقوم بتأصيل كلام ابن جزي، وتحليله، ثم مقارنته بما يذهب إليه غيره من المفسرين، مع ذكر الأدلة وأوجه الاستدلال، ثم أرجح ما يظهر لي من الرأي بناء على الضوابط العلمية المنهجية التي وضعها العلماء.
ثالثًا: الرجوع إلى أمهات الكتب في التفسير وعلوم القرآن والسنة واللغة وأصول الفقه وغيرها، فيما يخص مسائل التفسير والأجوبة عنها، ونقل ما يحتاجه البحث منها مع نسبته إليها.
رابعًا: عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها من السور، ونسبة القراءات إلى أصولها، وتخريج الأحاديث النبوية ونسبتها إلى مخرجيها متَّبعا منهج المحدثين في تخريج الأحاديث، وعزو الشواهد الشعرية إلى دواوينها.
خامسًا: شرح الكلمات الغريبة والغامضة.
سادسًا: ترجمة الأعلام ترجمة موجزة من كتب التراجم والسير.

مسائل ابن جزي الغرناطي وأجوبته في قضايا العقيدة :

(الإلهيات - السمعيات).

لمحة

العقيدة الإسلاميَّة هي اليقين والتصديق القلبي والاعتقاد الجازم المطابق للواقع الناشئ عن الدليل والتَّسليم والإيمان الجازم بالله - سبحانه وتعالى-، وطاعته وتتناول الإيمان والإيمان به، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وسائر أساسات الإيمان، وأركان الإسلام، وكلُّ ما هو قطعيٌّ في الدِّين؛ كحب الله تعالى، والمعاملة الحسنة، والأمر بالمعروف، والنَّهيُ عن المنكر، وحب الصَّحابة والعلماء، وكلُّ ما هو مندرجٌ تحت الصَّحيح من الدِّين الإسلامي. ولهذا فإنَّ أمور العقيدة هي كلُّ ما ثبت بالأدلة الصريحة القاطعة من أمورٍ غيبيَّةٍ وغير غيبيَّةٍ ثابتةٍ في أصول الاعتقاد من القرآن الكريم، وممَّا صحَّ ثبوته من الوحي للنبيّ - صلى الله عليه وسلم-، ويدخل في العقيدة كذلك المُسَلَّمات من الأمور العلميَّة والعمليَّة؛ كالالتزام بالفضائل و أصول الأخلاق الحميدة ونفي كلُّ ما هو ضدُّها. فالعقيدة هي الأساس الذي يقوم عليه الدِّين، فهي كالأساس للبِّناء، لِذا من خالف شيئاً من الأصول أدى ذلك إلى وجود خللٍ في العقيدة كاملةً، فمثلاً لو أن أحد المسلمين أنكر وجود مَلَكٍ من الملائكة وآمن بالباقي

فهذا يُنافي العقيدة الصَّحيحة التي لا تكون إلَّا باتِّباع جميع أصولها، فالعقيدة هي أصول الدِّين العظمى التي يَنبَني عليها الدِّين للفرد والجماعة من أُسسٍ وثوابتٍ ومُسلَّماتٍ وقطعياتٍ.

كما أن شَّريعة الإسلام تختص بالكمال والشُّمول؛ لأنَّها جاءت لجميع العالَمين، فلم تختصَّ بشعبٍ أو قومٍ معيّنين، وهي صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، فالله -تعالى- الذي خلق البشر هو العالم باحتياجاتهم ومنافعهم، شرع لهم ما يحتاجونه في أمر حياتهم.

إذا تمهد لي ذلك فإنه يحسن بي أن أسوق نماذج من كلام العلامة ابن جزي, وأقوم بعرضها وكشف اللثام عما تحتوي عليه من أسرار ودقائق تتعلق بجانب الإعتقاد.

أولا: الإلهيات

تكذيب الأصنام لمن كانوا يعبدونهم في الدنيا

المعروف أن الأصنام التي عبدها الكفار لا تتصف بالحياة, ولكن ورد في القرآن أنهم يكذبون من عبدوهم في الدنيا, ويتضح ذلك من المسألة التي أوردها ابن جزي كما سنري.

مسألة: ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[١] الضمير في القول للمعبودين والمعنى: أنهم كذبوهم في قولهم أنهم كانوا يعبدونهم، كقولهم: ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[٢]

عرض المسألة:

يري ابن جزي أنهم لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة حيث قال:" فإن قيل: كيف كذبوهم وهم قد كانوا يعبدونهم؟ فالجواب أنهم لما كانوا غير راضين بعبادتهم، فكأن عبادتهم لم تكن عبادة، ويحتمل أن يكون تكذيبهم لهم في تسميتهم شركاء لله، لا في العبادة".[٣]

الدراسة:

يقول الخازن في سؤال عنده فإن قلت: الأصنام جماد لا تتكلم فكيف يصح منها الكلام؟. قلت: لا يُبعد أن الله سبحانه وتعالى لما بعثها، وأعادها في الآخرة، خلق فيها الحياة والنطق والعقل حتى قالت ذلك. والمقصود من إعادتها وبعثها، أن تكذب الكفار ويراها الكفار وهي في غاية الذلة والحقارة، فيزدادون بذلك غما وحسرة.[٤]

---

[١] سورة النحل : الآية٨٦.

[٢] سورة يونس: الآية ٢٨.

[٣] التسهيل لعلوم التنزيل: ٢٨٧/٢.

[٤] لباب التأويل في معاني التنزيل, للخازن, ٨٣/٣.

وقد استدل الزمخشري علي قوله بدليل ذاده حيث قال: والدليل عليه قول الملائكة كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ يعنون أن الجن كانوا راضين بعبادتهم لا نحن، فهم المعبودون دوننا. أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله من الشريك. وإن أريد بالشركاء الشياطين، جاز أن يكون (كاذبين) في قولهم (إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) كما يقول الشيطان: إني كفرت بما أشركتمونى من قبل.[1]

بينما يقول ابن عطية : أخبر الله تعالى في هذه الآية أن المشركين إذا رأوا يوم القيامة بأبصارهم الأوثان والأصنام وكل معبود من دون الله لأنها تحشر معهم توبيخا لهم على رؤوس الأشهاد أشاروا إليهم وقالوا هؤلاء كنا نعبد من دون الله.[2]

الترجيح:

كل ما ذكر من آراء حول كيفية اعتذار المعبودات التي اتخذها المشركون أنداداً وأربابا من دون الله مرادة, فإذا كانت المعبودات أصناما وأوثانا فيحما أن يخلق فيها الله الحياة فتتكلم وتنطق بلسان المقال وإن لم يخلق الله فيها الحياة فيكون اعتذارها بلسان الحال. أما إذا كانت المعبودات من جنس الملائكة أو من جنس الجن فإن اعتذارها يكون بلسان المقال لأن خاصية الناطقية مخلوقة فيها. والله أعلم

أسلوب المعاريض في الحوار

المعروف أن من صفات الأنبياء الصدق وهذا أمر اتصف به كل أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ ومما هو معلوم من الكتاب والسنة أن سيدنا ابراهيم ـ عليه السلام ـ ورد علي لسانه ثلاث عبارات ليست علي حقيقتها, ومن ذلك المسألة التالية:

مسألة:ـ ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[3]

عرض المسألة:

قال ابن جزي: فإن قيل: "فقد جاء في الحديث(٤) إن إبراهيم كذب ثلاث كذبات: أحدها قوله (فعله كبيرهم)، فالجواب: أن معنى ذلك أنه قال قولا ظاهره الكذب، وإن كان القصد به معنى آخر، ويدل على ذلك قوله (فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ) لأنه أراد به أيضا تبكيتهم وبيان ضلالهم".(٥) فيري ابن جزي أن هذا الأسلوب لا يقصد به الإخبار المحض ولكن يقصد به التبكيت واقامة الحجة عليهم أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون إلاها.

الدراسة:

---

[1] الكشاف, للزمخشري, ٣٤٨/٤

[2] المحرر الوجيز, لابن عطية، ٣٤٥/٤

[3] سورة الأنبياء, الآية ٦٣.

[4] الحديث رواه الشيخان عن أبي هريرة وأوله: أنا سيد الناس يوم القيامة وقد رواه النووي في آخر كتاب رياض الصالحين.

[5] التسهيل لعلوم التنزيل: ٥١/٣.

يري السمرقندي أن هذا الأسلوب ورد علي سبيل الاستهزاء وليس علي سبيل الجد حيث قال: وإنما قال هذا على وجه الاستهزاء، لا على وجه الجد.(فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ) يعني: إن كانوا يتكلمون، فسألوهم من فعل هذا بكم.[١]

بينما يري الزمخشري أن هذا الأسلوب من معاريض الكلام حيث قال: قوله تعالي ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني. والقول فيه أنّ قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم.[٢]

ويري أبو زهرة أن هناك وقف لازم علي قوله (بل فعله) والضمير يعود الي ابراهيم ثم استأنف بقوله (كبيرهم هذا فاسألوه) وحمله علي ذلك نص الكلام عن ابراهيم حيث قال:

إن الضمير في (فَعَلَهُ) يعود إلى إبراهيم، وإن كان هو المتكلم، كأنه بإيماء القول جرد من نفسه شخصا آخر يخبر عنه، والمعنى أنه فعل، واستؤنف كلام بعد ذلك هو هذا كبيرهم، ولقد دفع بعض المتكلمين إلى هذا التكلف الذي ينافي السياق أنهم لَا يريدون أن ينسبوا كذبة إلى أبي الأنبياء.[٣]

الترجيح:

بعد عرض ما سبق يتبين لي أن الرأي الراجح هو رأي الزمخشري الذي يري أن هذا من معاريض الكلام وذلك فيه تهكم واضح عليهم؛ لأنهم لَا ينطقون فكيف يعبدون، وفي التهكم أخذ اعتراف منهم بأنهم لَا ينطقون، وأنها أحجار لَا تضر ولا تنفع، وهذا برهان قاطع على ضلالهم وبطلان ما يعبدون.

إن الصدمة تدفع إلى التفكر، وإذا كانت صدمة حق وإرشاد وتنبيه، فإنها ربما تهدي، وكذلك كان هؤلاء، فقد صدموا بتكسير الأصنام وجعلها جذاذا مما جعلهم يتفكرون ابتداء؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.[٤] والله أعلم

---

[١] بحر العلوم, للسمرقندي, ٤٣١/٢.

[٢] الكشاف, للزمخشري, ١٢٤/٣.

[٣] زهرة التفاسير, محمد أبو زهرة, ٣٨٦/٩.

[٤] سورة الأنبياء, الآية ٦٤.

ثانيا: السمعيات

النذير عند أهل الفترة

من رحمة الله بخلقه أنه لا يعذبهم حتي يرسل اليهم رسولا يبين لهم مراد الله منهم ويكون حجة عليهم يوم القيامة ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [1] وبين كل نبي وآخر أهل فترة, بعض الآيات توضح أن الله أرسل اليهم نذيرا وفي بعضها الآخر توضح أنه لم يرسل, فهذا في ظاهره التعارض, وهو ما ذكره ابن جزي في المسألة الآتية:

مسألة: قال تعالي: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]

وقال تعالي: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[3]

عرض المسألة:

يري ابن جزي أنه لا تعارض بينهما, والمراد بالإنذار هنا : النذير المعاصر وأنهم محتاجون الي الانذار لكونهم لم يسبق لهم نذير معاصر لهم وفي ذلك يقول: "فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

فالجواب: "أنهم لم يأتهم نذير معاصر لهم، فلا يعارض ذلك من تقدم قبل عصرهم، وأيضا فإن المراد بقوله: (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) أن نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليست ببدع فلا ينبغي أن تنكر من حيث الأمم السابقة، لأن الله أرسله كما أرسل من قبله والمراد بقوله: (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) أنهم محتاجون إلى الإنذار، لكونهم لم يتقدم من ينذرهم فاختلف سياق الكلام فلا تعارض بينهما".[4]

الدراسة:

---

[1] سورة النساء, الآية١٦٥.

[2] سورة فاطر, الآية٢٤.

[3] سورة القصص, الآية٤٦.

[4] التسهيل لعلوم التنزيل: ٢٨٦/٣.

ويري ابن جرير الطبري أن محمدا أرسل الي العرب لينذرهم من عبادة الأصنام وفي ذلك يقول: أرسلناك بهذا الكتاب وهذا الدين لتنذر قوما لم يأتهم من قبلك نذير، وهم العرب الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعثه الله إليهم رحمة لينذرهم بأسه على عبادتهم الأصنام، وإشراكهم به الأوثان والأنداد.[١]
وقال الزمخشري: ما أتاهم من نذير في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهي خمسمائة وخمسون سنة.[٢]
ويفسر الرازي الإنذار بالتخويف حيث قال: أما قوله: (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) فالإنذار هو التخويف بالعقاب على المعصية.[٣]
بينما قال القرطبي: (لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ) يعني العرب، أي لم تشاهد تلك الأخبار، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).

وقوله تعالي: (إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً) أي بشيرا بالجنة أهل طاعته، ونذيرا بالنار أهل معصيته. (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ) أي سلف فيها نبي. قال ابن جريج: إلا العرب.(٤) وهو في هذا الوجه مؤيدا لقول الرازي.

الترجيح:
بعد عرض المسألة السابقة يتضح لي أن الرأي الراجح هو رأي الإمام الرازي الذي يفسر النذير بالتخويف بالعقاب علي المعصية وليس إرسال الرسل فآثار الرسل ما زالت موجودة حتي مبعث النبي ـ صلي الله عليه وسلم ـ ولا يلزم من وجودها أن يكون مقصودا بها رسالة هذا المنذر في هذه الأمة التي وُجدت فيها هذه الآثار.

الفترات بين الرسل

أهل الفترة هم الذين عاشوا بين نبيين, وظلت آثار الأنبياء بينهم حتي مبعث رسول آخر, وقد اختلف القول في حكمهم هل هم معذبون أم ناجون؟ ويتضح ذلك فيما ذكره ابن جزي علي النحو التالي:

مسألة: قال تعالي ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ ﴾[٥]

عرض المسألة:

---

[١] تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن, أبو جعفر محمد بن جرير الطبري, ٢٦٤/١٨.
[٢] الكشاف, للزمخشري, ٤١٨/٣.
[٣] مفاتيح الغيب, للرازي, ٥٠٤/٢٤.
[٤] الجامع لأحكام القران, للقرطبي, ٢٩٢/١٣. ٣٤٠/١٤.
[٥] سورة فاطر, الآية ٢٤.

يري ابن جزي أن أهل الفترة بين عيسي ومحمد ـ عليهما السلام ـ قد بلغتهم الدعوة فقامت عليهم الحجة وفي ذلك يقول: قوله تعالي﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ معناه أن الله قد بعث إلى كل أمة نبيا يقيم عليهم الحجة. "فإن قيل: كيف ذلك وقد كان بين الأنبياء فترات وأزمنة طويلة؟ ألا ترى أن بين عيسى ومحمدا ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ ستمائة سنة لم يبعث فيها نبي؟ فالجواب أن دعوة عيسى ومن تقدمه من الأنبياء كانت قد بلغتهم فقامت عليهم الحجة".[1]

الدراسة:

يري الزمخشري أن الأمم التي عاشت في الفترة بين عيسي ومحمد ـ عليهما السلام ـ لها آثار باقية حتي بعثة النبي ـ صلي الله عليه وسلم ـ فلما اندثرت بعث الله محمدا, وفي ذلك يقول: فإن قلت: كم من أمّة في الفترة بين عيسى ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ولم يخل فيها نذير؟ قلت: إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندثر، وحين اندثرت آثار نذارة عيسى بعث الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ.[2]

وقال الرازي: في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ تقريرا لأمرين أحدهما: لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملا لتأذي القوم.

وثانيهما: إلزام القوم قبوله فإنه ليس بدعا من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعي ما ادعاه الرسل ويقرره.[3]

وأضاف النسفي قوله : قد كانت آثار النذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ فلم تخل تلك الأمم من نذير وحين اندسرت آثار نذارة عيسى ـ عليه السلام ـ بعث محمد ـ عليه السلام ـ (إلاَّ خَلاَ) مضى (فِيهَا نذير) يخوفهم وخاصة الطغيان وسوء عاقبة الكفران واكتفى بالنذير عن البشير فى آخر الآية بعد ما ذكرهما لأن النذارة مشفوعة بالبشارة فدل ذكر النذارة على ذكر البشارة.[4]

وفسر ابن عجيبة (النذير) بأنه علي قسمين: نذير من وبال الذنوب, ونذير من وبال العيوب وفي ذلك يقول: قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾، النذير على قسمين: نذير من وبال الذنوب، ونذير من وبال العيوب. فوبال الذنوب: العذاب، ووبال العيوب: الحجاب، فمَن تطهَّر من الذنوب استوجب نعيم الجنان، ومَن تطهّر من العيوب استوجب لذيذ الشهود والعيان. فالنذير الأول عالم بأحكام الله، والثاني عارف بالله، الأول مقتصد، والثاني سابق، ولا يخلو الدهر منهما، حتى يأتي أمر الله، فالشريعة باقية بقيام العلماء، والطريقة والحقيقة قائمتان بقيام الأولياء العارفين بالله،

---

[1] التسهيل لعلوم التنزيل: ٢٨٦/٣.

[2] الكشاف, للزمخشري, ٥٠٨/٣.

[3] مفاتيح الغيب, للرازي, ٢٣٤/٢٦.

[4] مدارك التنزيل وحقائق التأويل, للنسفي, ٨٥/٣.

أهل التربية النبوية، بالاصطلاح، والهمة، والحال. ومَن قال خلاف هذا فقد قال بالمحال.[١]

الترجيح:

بعد عرض الآراء في المسألة السابقة يتضح لي أن الرأي الراجح هم ما قال به ابن جزي من أن أهل الفترة معذبون لأن آثار الأنبياء باقية فيهم حتي مبعث النبي ـ صلي الله عليه وسلم ـ

إيمان الرسل قبل البعثة

من المعروف في كتب العقائد أن جميع الأنبياء كانوا علي الإيمان الفطري قبل بعثتهم وهذا ما أجمع عليه أهل العقيدة, ولكن هذه الآية ظاهرها يفيد بغير ذلك, ويتضح هذا من خلال المسألة التالية:

مسألة : قال تعالي: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ ﴾[٢]

عرض المسألة:

يري ابن جزي أن الإيمان عند النبي ـ صلي الله عليه وسلم ـ كان موجودا عنده قبل البعثة ولكن لم يكتمل إلا بعد البعثة حيث قال: "فإن قيل: أما كونه لم يكن يدري الكتاب فلا إشكال فيه، وأما الإيمان ففيه إشكال لأن الأنبياء مؤمنون بالله قبل مبعثهم؟

فالجواب: أن الإيمان يحتوي على معارف كثيرة، وإنما كمل له معرفتها بعد بعثه، وقد كان مؤمنا بالله قبل ذلك، فالإيمان هنا يعني به كمال المعرفة وهي التي حصلت له بالنبوة ولكن جعلناه نورا الضمير للقرآن".[٣]

ويري الزمخشري أن الإيمان المقصود في الآية الإيمان الذي طريقه السمع وليس العقل وفي ذلك يقول: الإيمان اسم يتناول أشياء: بعضها الطريق إليه العقل، وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل، وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي. ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى (وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ بالصلاة)، لأنها بعض ما يتناوله الإيمان مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا من له لطف ومن لا لطف له، فلا هداية تجدى عليه صِراطِ اللَّهِ بدل.(٤) وقد تعقبه محققوا أهل السنة في هذا المقام بما يفيد بيان دَخَلِه فقال العلامة الطيبي في فتوح الغيب... قوله

---

[١] البحر المديد, لابن عجيبة, ٥٣٥/٤.

[٢] سورة الشوري, الاية٥٢.

[٣] التسهيل لعلوم التنزيل: ٤٥/٤.

[٤] الكشاف, للزمخشري, ٢٣٤/٤.

(الإيمان اسم يتناول أشياء) : قال محيي السنة(١): "﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾: يعني: شرائع الإيمان ومعالمه, وأهل الأصول علي أن الأنبياء مؤمنون قبل الوحي, وكان النبي ـ صلي الله عليه وسلم ـ قبل الوحي علي دين إبراهيم, ولم تتبين له شرائع دينه.[٢]

ويري الرازي أن ذلك علي حذف مضاف حيث قال: يحمل هذا على حذف المضاف، أي ما كنت تدري ما الكتاب ومن أهل الإيمان، يعني من الذي يؤمن، ومن الذي لا يؤمن.

الثالث: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان حين كنت طفلا في المهد.
الرابع: الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به، وإنه قبل النبوة ما كان عارفا بجميع تكاليف الله تعالى، بل إنه كان عارفا بالله تعالى، وذلك لا ينافي ما ذكرناه الخامس: صفات الله تعالى على قسمين: منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية. فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة.[٣]

ويري الطوفي أن الكلام علي حذف مضاف والأصل: ماهية الإيمان وفي ذلك يقول: يجب تأويل الآية على ما يزيل عنها هذا المحذور، مثل المراد: ما كنت تدري ما الكتاب ولا ماهية الإيمان وحقيقته، ولا يلزم من كونه مؤمنا معرفة ذلك، بدليل أن أكثر الناس هم كذلك. أو: ما كنت تدري ما الكتاب ولا كيفية الدعاء إلى الإيمان؛ إذ كيفية دعاء الناس إلى الإيمان إنما يعلم بالوحي، فقبل الوحي من أين يعلم، ولا يلزم من كون الإنسان مؤمنا في نفسه أن يدري كيف يدعو أو إلى ما يدعو غيره، لجواز أن يتعبد الله-عز وجل- كل إنسان بأمر غير ما يتعبد به الآخر، كما اختص النبي صلى الله عليه وسلم بخواص تعبد بها لم تكن لغيره.[٤]

ويري الطاهر بن عاشور أن المراد بالإيمان ماهيته أو أن الإيمان يطلق علي الإسلام وفي ذلك يقول: ومعنى انتفاء دراية الإيمان: عدم تعلق علمه بما تحتوي عليه حقيقة الإيمان الشرعي من صفات الله وأصول الدين وقد يطلق الإيمان على ما يرادف الإسلام كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ وهو الإيمان الذي يزيد

---

(١) يقصد معالم التنزيل للبغوي: ٢٠١/٧.

(٢) انظر: فتوح الغيب, للطيبي, ٩٣,٩٢/٨.

(٣) مفاتيح الغيب, للرازي, ٥١٥/٢٧.

(٤) الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية, نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الصرصري الحنبلي (ت ٧١٦ هـ)
تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل, الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان, الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م، ص٥٦٩.

وينقص كما في قوله تعالى:﴿ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾[١] فيزاد في معنى عدم دراية الإيمان انتفاء تعلق علم الرسول صلى الله عليه وسلم بشرائع الإسلام. فانتفاء درايته بالإيمان مثل انتفاء درايته بالكتاب، أي انتفاء العلم بحقائقه ولذلك قال: ما كنت تدري ولم يقل: ما كنت مؤمنا. وكلا الاحتمالين لا يقتضي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن مؤمنا بوجود الله ووحدانية إلهيته قبل نزول الوحي عليه إذ الأنبياء والرسل معصومون من الشرك قبل النبوءة فهم موحدون لله ونابذون لعبادة الأصنام، ولكنهم لا يعلمون تفاصيل الإيمان، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم في عهد جاهلية قومه يعلم بطلان عبادة الأصنام، وإذ قد كان قومه يشركون مع الله غيره في الإلهية فبطلان إلهية الأصنام عنده تمحضه لإفراد الله بالألهية لا محالة.[٢]

وقال ابن الجوزي:" لم يُرد به الإيمان الذي هو الاقرار بالله؛ لأن آباءه الذين ماتوا علي الشرك كانوا يؤمنون بالله ويحجون له مع شركهم". [٣]

الترجيح:

كل الآراء التي ذكرت في المسألة محتملة عدا ما ذهب إليه العلامة الزمخشري من القول بأن الإيمان اسم يتناول أشياء بعضها الطريق إليه العقل وبعضها الطريق إليه السمع فعني به ما الطريق إليه السمع دون العقل وذلك ما كان له فيه علم حتي كسبه بالوحي ألا تري أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالي﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾ [٤] بالصلاة لأنها بعض ما يتناوله الإيمان وقد دس الزمخشري في كلامه هذا مبدأ من مبادئ الاعتزال حيث جعل الصلاة بعض ما يتناوله الإيمان فمن تركها بناءا علي مذهبه يعد خارجا من الإيمان.

اقرار الكفار يوم القيامة بالبعث الذي أنكروه في الدنيا

الكفار الذين أنكروا البعث في الدنيا وقالوا ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا ﴾[٥] تجدهم عند وقوفهم في عرصات القيامة يقرون بالبعث, فيصبح البعث حقيقة لا ينكرها أحد, ومن ذلك المسألة التالية:

---

[١] سورة المدثر,الآية٣١.

[٢] التحرير والتنوير, للطاهر بن عاشور,١٥٢/٢٥.

[٣] انظر: زاد المسير, لابن الجوزي, ٢٩٩/٧.

[٤] سورة البقرة: الآية١٤٣.

[٥] سورة الجاثية, الآية٢٤.

مســـــألة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾[1]

عرض المسألة:

يري ابن جزي أن تعقيب الآية بقوله (أمتنا) الغرض منها اقرارهم بالبعث بعد أن مقتهم الله بتكذيبهم به في الدنيا وفي ذلك يقول:" فإن قيل: كيف اتصال قولهم (أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) بما قبله؟

فالجواب: أنهم كانوا في الدنيا يكفرون بالبعث، فلما دخلوا النار مقتوا أنفسهم على ذلك، فأقروا به حينئذ ليرضوا الله بإقرارهم، حينئذ فقولهم: (أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) إقرار بالبعث على أكمل الوجوه، طمعا منهم أن يخرجوا عن المقت الذي مقتهم الله إذ كانوا يُدعَوْن إلى الإسلام فيكفرون ".[2]

الدراسة:

ويري الزجاج أن احدي الحياتين واحدي الميتتين تكون في القبر وفي ذلك يقول: قوله تعالي﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ أي: قد أريتنا من الآيات ما أوجب أن علينا أن نعترف وقالوا في ﴿ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ أي: خلقتنا أمواتاً ثم أحْييتنا ثم أَمَتَّنَا بعدُ، ثم بعَثْتَنا بعدَ المَوْت. وقد جاء في بعض التفاسير أن إحدى الحياتين، وإحدى الموتتين أن يحيا في القبر ثم يموت، فذلك أدل على (أَحْيَيْتَنَا وأَمَتنَا)، والأول أكثر في التفسير.[3]

ويري الواحدي أنهم قالوا هذا الكلام لأنهم كانوا يكذبن به في الدنيا فآمنوا به في النار وفي ذلك يقول: ثم أخبر عما يقولون في النار بقوله: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ أي: كنا نطفا في الدنيا أمواتا، فخلقت فينا الحياة، ثم أمتنا وبعثتنا بعد الموت، وهذا كقوله: ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾[4]

---

[1] سورة غافر, الآيتين ١٠,١١.

[2] التسهيل لعلوم التنزيل: ٤/٥.

[3] معاني القرآن, للزجاج, ٤/٣٦٨.

[4] سورة البقرة, الآية٢٨.

وإنما قالوا هذا، لأنهم كانوا قد كذبوا في الدنيا بالبعث، فاعترفوا في النار بما كذبوا به، وهو قوله: فاعترفنا بذنوبنا أي: بالتكذيب، وما كنا نكذب به في الدنيا. (١)

وتبعه في ذلك السيوطي حيث قال: فإن قيل: كيف اتصال قولهم:﴿ قَالُوٓاْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ بما قبله. فالجواب أنهم كانوا في الدنيا يكفرون بالبعث، فلما دخلوا النار مقَتوا أنفسهم على ذلك، فأقرّوا به حينئذ ليرى الله إقرارهم بقولهم: ﴿ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾، إقراراً بالبعث على أكمل الوجوه، طمعا منهم أن يخرجوا عن المقْتِ الذي مقتهم الله، إذ كانوا يُدْعَون إلى الإيمان فيكفرون.[٢]

الترجيح:

بالنظر في كل الآراء الواردة في هذه المسألة يتبين لي أن الكفار اعترفوا بالبعث وغرضهم من ذلك هو التوسل الي الله بالرجوع الي الدنيا مرة أخري حيث قالوا ﴿ فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ﴾ وهذا الكلام خرج منهم مخرج اليأس واستبعاد رجوهم الي الدنيا، ولذلك أُجيبوا بقوله: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[٣] والله أعلم.

الآخرة ليست دار تكليف

المعروف شرعا أن الدنيا هي دار التكاليف الشرعية التي عرفها الناس علي يد الأنبياء المرسلين وأن الآخرة هي دار الحساب والجزاء, ولكن هذه الآية يفيد ظاهرها أن الآخرة دار تكليف, والرد علي ذلك يكون من خلال المسألة التي ذكرها ابن جزي علي النحو التالي: [٤]

مسألة: قال تعالي ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[٥]

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد, للواحدي, ٦/٤.

(٢) معترك الأقران, للسيوطي, ٢٠/٢.

(٣) سورة غافر, الآيتين ١٢,١٣.

(٤) انظر: أحكام أهل الذمة, المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) تحيقق: يوسف بن أحمد البكري – شاكر بن توفيق العاروري, رمادى للنشر – الدمام, ط١، ١٤١٨ – ١٩٩٧م, ١٤٨/٢.

(٥) سورة القلم, الآية٤٢.

عرض المسألة:

يري ابن جزي أن دعوتهم الي السجود للتوبيخ وليست علي الحقيقة حيث قال:" فإن قيل: كيف يدعون في الآخرة إلى السجود وليست الآخر دار تكليف؟ فالجواب: أنهم يدعون إليه على وجه التوبيخ لهم على تركهم السجود في الدنيا لا على وجه التكليف والعبادة".[١]

الدراسة:

يري القصاب أن عدم سجودهم قضاء من الله حيث قال : أنهم دعوا إلى السجود له - في دار الدنيا فامتنعوا، بما سبق في قضائه عليهم أنهم لا يفعلونه، فلم يستطيعوه في الدنيا، ولا في الآخرة. وهذا حجة ثابتة عليهم في باب الاستطاعة، ألا ترى أنه قد أخبر - نصًّا - عنهم أنهم لا يستطيعون السجود، لما يدعون إليه في الآخرة، واستطاعه غيرهم ممن سبقت لهم منه الرحمة، فاستطاعوه في الدنيا والآخرة.[٢]

وبذلك قال الزمخشري فيما نصه: لا يدعون إليه تعبدا وتكليفا، ولكن توبيخا وتعنيفا على تركهم السجود في الدنيا، مع إعقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين الاستطاعة تحسيرا لهم وتنديما على ما فرّطوا فيه حين دعوا إلى السجود، وهم سالمون الأصلاب والمفاصل ممكنون مزاحو العلل فيما تعبدوا به.(٣) وبذلك قال الرازي ما نصه: قوله تعالي ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، "وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون اعلم أنا بينا أنهم لا يدعون إلى السجود تعبدا وتكليفا، ولكن توبيخا وتعنيفا على تركهم السجود في الدنيا، ثم إنه تعالى حال ما يدعوهم إلى السجود يسلب عنهم القدرة على السجود، ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم ونداماتهم على ما فرطوا فيه، حين دعوا إلى السجود وهم سالموا الأطراف والمفاصل".[٤]

ويري ابن القيم أن ترك السجود في الآخرة عقوبة لهم حيث قال: أنَّ التكليف إنَّما ينقطع بعد دخول دار القرار، وأمَّا في البرزخ وعرصات القيامة فلا ينقطع. وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسألة الملكين في البرزخ، وهي تكليف. وأمَّا في عرصة القيامة فقد قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا

---

(١) التسهيل لعلوم التنزي:٢٧٧/٤.

(٢) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام,أحمد محمد بن علي بن محمد الكَرجي القصَّاب (ت نحو ٣٦٠هـ), تحقيق:الجزء ١ : علي بن غازي التويجري, الجزء ٢ – ٣: إبراهيم بن منصور الجنيدل, الجزء ٤ : شايع بن عبده بن شايع الأسمري, دار القيم – دار ابن عفان, ط١ ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م، ٣٨٨/٤.

(٣) الكشاف, للزمخشري, ٥٩٥/٤.

(٤) مفاتيح الغيب, للرازي, ٥١٤/٣٠.

يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ فهذا صريح في أنَّ الله تعالى يدعو الخلائق إلى السجود يوم القيامة، وأنَّ الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك، ويكون هذا التكليف بما لا يطاق حينئذٍ حسنًا عقوبةً لهم؛ لأنَّهم كُلِّفوا به في الدنيا وهم يطيقونه، فلما امتنعوا منه وهو مقدور لهم، كُلِّفوا به وهم لا يقدرون عليه حسرةً عليهم وعقوبةً لهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ يعني أصحاء، لا آفةَ تمنعهم منه. فلمَّا تركوه وهم سالمون دُعوا إليه في وقت حيل بينهم وبينه.(١) ويري الدبيخي أن طلب السجود منهم في الآخرة تكليف حيث قال: وأما في عرصات القيامة فإن قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ صريح في وقوع التكليف في الآخرة لأن الله تعالى يدعو الخلائق إلى السجود فيسجد المؤمنون ويُحال بين الكفار وبين السجود لأنَّهم كُلِّفوا به في الدنيا وهم قادرون عليه فامتنعوا، وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[٢]

الترجيح:

بعد عرض المسألة السابقة يتضح لي أن الرأي الراجح قول ابن جزي, حيث أن طلب السجود منهم في الآخرة يكون علي سبيل التوبيخ لهم فقد تركوه في الدنيا, فيطلب منهم في الآخرة, أما قول من يقول أن في الآخرة يطلب منهم السجود علي سبيل التكليف فهذا ضعيف لأن الآخرة دار حساب وليست دار تكليف. والله أعلم

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات, وله الحمد أن هدانا بالآيات البينات والصلاة والسلام علي شفيعنا يوم القيامة محمد ـ صلي الله عليه وسلم ، وبعد....

فقد تم بحمد الله وتوفيقه الانتهاء من موضوع (مسائل ابن جزي الغرناطي التفسيرية وأجوبته عنها من خلال تفسيره التسهيل لعلوم التنزيل: جمعا ودراسة), ومما لا شك

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين, الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية, ٢/٣٧٥.

(٢) أحاديث العقيدة التي يوهم ظاهرها التعارض في الصحيحين دراسة وترجيح, د سليمان بن محمد الدبيخي, أصل الكتاب: رسالة ماجستير، جامعة أم القرى بمكة المكرمة – كلية الدعوة وأصول الدين (قسم العقيدة), مكتبة دار البيان الحديثة، الطائف – المملكة العربية السعودية ط١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م، ص٥٣١.

فيه أن كل عمل يعتريه الخطأ والنقص إلا كتاب الله ـ عز و جل ـ ولكن هذا ما هدانا الله تعالي لجمعه في هذا الموضوع سائلين الله سبحانه وتعالي أن يتقبل مني هذا العمل, وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي الله بقلب سليم.

وبعد الرحلة الشاقة في بطون الكتب فحصا وتنقيبا, **توصلت الي نتائج أهمها**:

١- كان مولد ابن جزي ونشأته في بيت علم وأصالة, وبيئة علمية عاصر فيها أشهر العلماء من أمثال ابن رشيد الفهري, وأبو جعفر الثقفي له أثره.

٢- كان ابن جزي عالما حافظا, مقرئا متقنا, أديبا لغويا, محدثا أصوليا, مفسرا, ألف العديد من الكتب في علوم شتي, مما مكنه من اعتلاء مناصب في مجتمعه من دراسة وخطابة وافتاء.

٣- أن الأسئلة والأجوبة التي تعرض لها المفسر بمثابة قدر مشترك بين كثير من المفسرين, وهذا الأمر لا يخفي علي مُطالع مطولات وتصانيف العلماء

٤- أثبتت الدراسة أن ابن جزي ـ رحمه الله ـ اهتم بالمسائل المتعلقة بآيات الأحكام والقضايا الفقهية المستنبطة منها اهتماما زائدا عن اهتمامه بالجوانب الأخري وذلك لطول باعه وتضلعه في جانب الفقه المالكي شأنه شأن علماء الأندلس خاصة أهل غرناطة.

٥- اعتناء الإمام ابن جزي عناية بالغة في ابراز الأسرار والأوجه البلاغية وهذا ينبأ عن رسوخ قدمه وطول باعه في علوم البلاغة.

٦- لم يغفل ابن جزي الجوانب المتعلقة بالنواحي النحوية حيث أورد العديد من المسائل المتعلقة بأوجه الإعراب وقام بالجواب عنها إيمانا منه بأن الإعراب فرع المعني وكلما تعددت أوجه الإعراب كثرت المعاني وتوفرت.

٧- يعد تفسير ابن جزي (التسهيل لعلوم التنزيل) أول التفسير أندلسي يصل إلينا, لتميزه بسهولة العبارة, والاختصار غير المخل, والفوائد الجليلة التي استقاها من خلال تعايشه مع كتاب الله ـ عز وجل ـ مما لا وجود له في كتب من سبقه, إنما هو من بناء فكره وما جادت به قريحته المتّقدة الأمر الذي جعل العلماء والباحثين يقبلون علي هذا السِّفر النفيس بشغف .

٨- الدافع الذي دفع ابن جزي لكتابة هذا التفسير النفيس إنه ذكر في مقدمته " إن علم القرآن العظيم هو أرفع العلوم قدرا وأجلها خطرا, وأعظمها أجرا, وأشرفها ذكرا. وأن الله أنعم عليّ بأن شغلني بخدمة القرآن وتعلمه وتعليمه وشغفني بتفهم معانيه وتحصيل علومه, فاطلعت علي ما صنف العلماء ـ رضي الله عنهم ـ في تفسير القرآن من التصانيف المختلفة الأوصاف المتباينة الأصناف, فمنهم آثر الاختصار, ومنهم من طوّل حتي كثّر الأسفار, ومنهم من تكلم في بعض فنون العلم دون بعض, ومنهم من اعتمد علي نقل أقوال الناس, ومنهم من عوّل علي النظر والتدقيق, وكل أحد سلك طريقا نحاه ومذهبا ارتضاه, فرغبت في سلوك طريقهم والانخراط في مساق فريقهم, وصنفت هذا الكتاب في تفسير القرآن العظيم وسائر ما يتعلق به من العلوم وسلكت مسلكا نافعا إذ جعلته وجيزا نافعا".

التوصيات:

٩- أوصي طلاب العلم من الباحثين والباحثات أن يعقدوا العزم بتوفر الهمة والعناية بمطالعة والعكوف علي مدارسة العلوم الخادمة لتفسير كتاب الله ـ عز وجل ـ إيمانا منهم بأن تحصيل هذه العلوم حتم لازم كي يفتح الله عليهم بما يؤهلهم لفهم كتاب الله علي قدر طاقتهم البشرية.

١٠- أن يواصل الباحثون والباحثات دراساتهم حول أئمة وأعلام التفسير ليكشفوا اللثام عن كثير من ثرواتهم العلمية التي لم تأخذ حظها ولم تخرج بعد الي النور.

١١- من منطلق دراستي للمسائل والأجوبة عنها في تفسير ابن جزي, أوصي أن يعني الباحثون والباحثات بتناول جوانب أخري متعددة انتظمها هذا التفسير.

١٢- أوصي بدراسة المقدمات التي كتبها ابن جزي في تفسيره (التسهيل لعلوم التنزيل) و خاصة دراسة المقدمة الثانية لما تحويه من مادة علمية غزيرة, وبحثها بحثا عميقا وذلك لما اشتملت عليه من جوانب علمية لا غني لأي طالب علم يريد أن يتصدي للدرس التفسيري.

في الأخير نسأل الله العظيم أن يجعلنا من النافعين المستنفعين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

فهرس المصادر والمراجع

١. الإصابة في تمييز الصحابة لأبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ.

٢. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق، محمد على النجار، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الناشر : الدار التونسية للنشر - تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

٤. تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٥. تفسير الإمام ابن عرفة المؤلف: محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: ٨٠٣هـ)، المحقق: د. حسن المناعي الناشر: مركز البحوث بالكلية الزيتونية - تونس الطبعة: الأولى، ١٩٨٦م.

٦. التَّفْسِيرُ البَسِيْط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ط: الأولى، ١٤٣٠هـ.

٧. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.
٨. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى١٤١٩.
٩. تفسير القرآن, المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت ٤٨٩هـ), تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم , دار الوطن، الرياض – السعودية, ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م،
١٠. تفسير القرآن, المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت ٤٨٩هـ), تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم , دار الوطن، الرياض – السعودية, ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
١١. تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة), محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣هـ), تحقيق: د. مجدي باسلوم , دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان, ط١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
١٢. جامع البيان في تأويل آي القرآن تفسير الطبري للمؤلف : محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري, المحقق: أحمد محمد شاكر, ط: مؤسسة الرسالة ,الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
١٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ أبي الفضل احمد بن على بن حجر العسقلاني– ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٤. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل, الكتاب: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (ت ٧٠٨هـ) وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي ,دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان